

الجبان

شعر: عبدالله عيسى السلامة*

ما زال تحت رُكام اللُّغو مُنْطَرِحاً
ما زال مضطجعاً، ما زال مُتَكَيِّئاً
ما زال يزدردُ التاريخَ في حُلُمٍ
ما زال، لا الروحُ في أضلاعه عَصَفَتْ
ولا روى المدن الحمراء طافِحَةً
ولا الحناجرُ بعد الفجرِ لاهِثَةً
لا شيء يَحْفِزُهُ، مَيَّتْ وإن رَعِشت
تُخِفُّهُ الرِّيحُ إن مَرَّتْ به عَرَضاً
والبرق إن لاح والأمطار إن هطلت
والهمس، واللمس، والشَّريان إن عبرت
حتى الزمانُ إذا غاصت أناملُهُ
منزوعة نزعة الأحياء من دَمِهِ

عبداً لـ (ما انفك) أو عبداً لـ (ما برحا)
ما زال مُغْتَبِقاً، ما زال مُضْطَجِعاً
نَشْوَانٌ، يمضغ فيه الزبد والبلحا
ولا حصانُ العلا في صدره جَمَحاً
في مقلتيه، وبطنُ الأرض قد طَفَحاً
بين الرقابِ، ولا بَقَرُ البُطُونِ ضُحِي
أوصالُهُ، لو رأى هِراً لما نَبَحاً
والليلُ، والبلبلُ الصَّدَّاحُ إن صدحا
والشمس إن أشرقت والعطر إن نفحا
فيه الدماء، وظلُّ الفكر إن سَنَحاً
في شَعْرِ صُدْغَيْهِ صَكَ الوجه أو ضَبَحاً
عافَ الطموحَ وجافى كُلَّ مَنْ طَمَحاً



(*) شاعر وروائي سوري، له عدد من الدواوين الشعرية منها: الظل والحُرور، واحة في التيه، ثاليل في جبهة السامري، وله رواية الثعابيني، والغيمة الباكية.

من عيون الأدب الإسلامي

دراسة في شعر محمود مفلح

د / محمد علي الهاشمي *

أدب

تَأَلَّقْتُ في سماء الأدب الإسلامي المعاصر نجوم من الشعراء، تفتّحت قرائحهم في أجواء الصحوة الإسلامية، ونهلوا من مناهلها العذبة الصافية، واستضاءوا بمشكاة الوحي وهُدِّي النبوة، فجاء شعرهم أصيلاً في منطلقاته، غنياً ثراً في مضمونه، حياً متدفقاً بالعاطفة النبيلة الصادقة والفن الرفيع.

ذلك أن الفن العالي لا ينسرب إلا من القلب المرفه الشاعر، الذي يهتز طرباً للسرور، ويرتجف ألماً من الضراء، ويعكس ما يعتلج فيه من مشاعر الفرح والترح، واللذة والألم، والارتياح والانقباض. وشعر النجوم من الإسلاميين في معظمه من هذا النمط من الفن.

ومن هؤلاء الشعراء المتألقين في ساحة الشعر الإسلامي الرحبية الشاعر محمود مفلح. فقد أتيح لي أن أطلع على طائفة صالحة من شعره في دواوينه الثلاثة: إنها الصحوة، وشموخاً أيتها المآذن، والراية، وأبنت من هذه الإطلالة السريعة على تلك الدواوين بشعور واضح عميق بأن الشاعر محمود مفلح لم يقل الشعر تزجية للوقت وتسلية، ولا مكاءً وتَصْدِيقاً. وإنما انساب الشعر من نفسه المفعمة بالمشاعر النبيلة، ومن فكره المترع بالمثل العليا، والمبادئ القويمية، ومن تصوّره الإسلامي الراشد الواعي للكون والحياة والإنسان، ومن فهمه العميق لرسالة الشعر.

وقد صور فهمه للشعر، وتصوره للشاعر ورسالته في الحياة، في غير موضع من دواوينه، فقال^(١):

وقصائدٌ مثل العرائس، مهزّرها	غالب، وأخرى ليس فيها مطمَع
فوق النجوم تعيش بعض قصائد	والبعض في عَفْنِ القمامة يقبع
وأجلهن قصيدة عريضة	فيها من الإسلام شمس تسطع
تأبى على أهل الغرور غرورهم	وتشدد من أزر الضعيف وتمنع
وتثور في وجه الطغاة وتنبري	للظالمين، تؤزّهم وتزعزع
وإذا أصاب المسلمين مصيبة	فهي التي من أجلهم تتوجّع
وهي التي تأسو الجراح بليهم	والفجر من جرح القصيدة يطلع
وهي التي تنهل في صحرائهم	مطراً، وتحفر في الصخور وتزرع
حسب القصائد أنها لا تنحني	إلا لجبار السماء وتركع

إنها المقارنة التي تبرز البون شاسعاً بين الشعر العزيز الحرّ، والشعر الذليل الرخيص. فقصائد الأول كالعرائس تمس فوق النجوم، وقصائد الثاني تقبع في عفن القمامة. وأجل القصائد وأجدرها بالبقاء والخلود هي القصائد الحرة الصادقة بالحق، الثائرة في وجه الطغاة، الآسية جراح المسلمين. وهي المزن اهتون المغدق، الذي يهب الصحراء القاحلة، والصخور الصلدة، الحياة والخصب والنماء. وهي فوق ذلك كله، العزيزة التي لا تنحني إلا لجبار السماوات والأرض.

ولقد ألزم الشاعر نفسه بقول هذا النمط من الشعر، وحرص على أن يقدم شعره في مستهل دواوينه، شارحاً منهجه في صوغ الكلمة وصناعة القريض. فهو لا يقول الشعر جرياً وراء منفعة، ولا يعبت بحرمة الكلمة؛ فيصوغ شعراً مزيفاً رخيصاً، يحرق فيه البخور للسادة الكبراء، ويصفق مع المصنفين^(٢):

أنا لست أعبتُ بالكتابة

أنا لست أركب موجة الشعر الرخيص

(*) أستاذ الأدب العربي في كلية الآداب للبنات بالرياض، من مؤلفاته: جبهة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (تحقيق)، عدي بن زيد العبادي الشاعر المبتكر، طرفة بن العبد حياته وشعره.

ولا طرقتُ عليه بابَه

أنا لم أصفّق للذين تورّمت أوداجُهم

في موسم العرب، الخطابة

أنا لم أمت فيه صباية

جرحي الذي زرعوه ليس هو الربابة

قلبي الذي طعنوه في ليل الهزيمة كيف ينسى ما أصابه

وهو ليس كشعراء الملاحى والكأس المترعة، وليس من المنافقين المتاجرين الذين ينتفشون في إنشاد الشعر المزيف المأجور، رافعين عقيرتهم به، صائحين كصياح الديكة فوق الدمن^(٣).

أنا لا أفتش في مقاهي الليل عن لغة الوطن

أنا لا أسافر في تخوم الكأس كي أنسى الشجن

أنا لا أقاتل في الخفاء ولا أسالم في العلن

أنا لا أتاجر بالشهادة .. لا أتاجر بالحجارة ..

لا أتاجر بالكفن

أنا لا أصبح كما ديوك الشعر من فوق الدمن

وإنه ليعرف طريقه، وإنه لمصمّم على السير فيه، مهما كلّفه ذلك من تضحيات، ومهما جرّ عليه من متاعب وأهوال^(٤).

أنا منذ أطلقت العنان لأحرفي

وبدأت أطلق بالقلم

.. أدركت أن الدرب مذابة

وأن الحرف مسغبة

وأنى إن أمت .. سأموت من أجل القيم

ولأجل هذا صُنفت في الشكوك .. ووُزعت في التهم

من هذه الرؤية الراشدة لرسالة الشاعر انطلق شاعرنا محمود مفلح يفتق أكام المعاني، ويصوغ الموضوعات الساخنة التي تلامس كوامن المشاعر في نفوس جيل الصحوّة الإسلامية، وتفتح عينيه على الواقع المرّ الذي تعيشه أمة الإسلام، وتبين له الفرق الشاسع الكبير بين ما أراد الله لهذه الأمة من عزة وسيادة ومنعة وسودد، وما رضيت به لنفسها من ذل وتبعية وضعف وتخلف، وترسم له طريق الخلاص والتحرر من ذلك الواقع المزري المهين. ومن هذه الموضوعات الساخنة:

١ - بين الماضي المجيد والحاضر المقيت:

لقد صور الشاعر محمود مفلح ماضي أمة الإسلام الشامخ، يوم كانت في علياء مجدها، وصوّر حاضرها المهين، وهي في حضيض ارتكاسها وتخلفها، وألح على هذا المعنى في كثير من قصائده، مستثيراً هم المسلمين، ليخلعوا عنهم نير التخلف، ويستعيدوا ذلك المجد العريق المؤثّل^(٥):

املعباً للنجوم كانت روايتنا وقاماتنا من النجم أعلى

نحن من رصع الزمان شموساً وأحال الرمال ماء وظلاً

إن يكن أمسنا البعيد هزيراً فلقد عزّ أن يرى اليوم شبلًا

قصة نحن في عشاء المحاسيب، دعاء على الوليمة يثلى

فيا للمفارقة الهائلة بين الأمس واليوم، إذ أصبحت الأمم تتداعى علينا كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، كما في الحديث الشريف المشهور.

ونقف مع الشاعر في قصيدته (إنهم فتية)، فإذا نحن أمام دفقة شعورية عارمة، يستهلّ بها قصيدته، معبراً عن ألمه المبرّح من تخلف العرب وبلادة حسّهم^(٦):



محمود مفلح



الرؤية الواضحة للشاعر جعلته

يصوغ موضوعات تلامس كوامن

المشاعر في جيل الصحوة الإسلامية

بأي لون أخط الحرف يا عرب وهل تبقى دم في القلب ينسكب

ماذا أقول لمن قالوا وما فعلوا ماذا أقول لمن هموا وما وثبوا

إنه لتساؤل مريب، ينبع من نفس متأججة بشعور الحسرة والألم، يتبعه تساؤل آخر عن جذورنا وماضينا وتراثنا وتاريخنا^(٧):

أين الجذور التي غاصت بثرتنا وأين آفاقنا والبدر والشهب
لقد غدونا كبعض الزاحفات فلا تشكو البطون ولا الأيدي ولا الركب
سيف العدالة ما أهوى به عمر ولا اطمأنت إلى فرسانها حلب

ويمد طرفه إلى الشعوب الحية المتحررة، ثم يرجع به إلى واقعنا الأليم، وتبعيتنا الذليلة، وتخططنا في داجي ليلها البهيم^(٨):

كل الشعوب لها وزن وقافية ونحن مثل هشيم ضل وجهته
هكذا يشرق، إن الشرق كعبته وكلما قلت هل الفجر يا وطني
وقد عجبك لقول «إننا عرب» لها شرع، لها سمث، لها أرب
فحيثما قلبته الريح ينقلب وذا يغرب .. إلا أنه الذنب
تعاظم الأسودان: الليل والرهب وواقع الحال ينفي «أننا عرب»

ثم يصور مخازي العرب في كلمات متتابعات سريعة:

الزار والعار والأوتار تعرفنا والعرف والقصف والإذبار والهرب

ويحس أنه قسا على أمته، فيعتذر إليها مسوغاً قسوته تلك بغيرته على أمته وحبها لها، وتأمله من تقدم الأمم وتخلّف أمته، أمة السيادة والريادة والأجداد والمكرمات^(٩):

يا أمتي، إن قسوت اليوم معذرة فكم يحز بقلبي أن أرى أمماً
ونحن كنا بهذا الكون ألوية ونحن كنا لمجد الشمس نتسب

ويختتم قصيدته بتصوير رائع للتفاؤل والاستبشار بأولئك الفتية الصياد الذين آمنوا برهيم، وزادهم ربهيم هدى؛ إذ يكاد يسمع جلبة موكبهم الزاحف الميمون، ويحس اقتراب ساعة الخلاص على أيديهم الطاهرة بقدر من الله، تكلّوهم عناية الله، وترنوا أبصارهم لتطبيق شريعته السمحة لغراء^(١٠):

إني لأسمع وقع الخيل في أذني وأبصر الزمن الموعود يقترب
وفتية في رياض الذكر مرتعهم الله ما جمعوا، الله ما وهبوا
إذا نظرت إليهم خلّت أنهم جاؤوا من الخلد، أو للخلد قد ركبوا
جاؤوا على قدر، والله يحرسهم وشريعة الله .. نعم الفاي والنسب

لقد كان هذا الواقع المر الذي يعيشه العرب يحز في نفس الشاعر محمود مفلح، فلا يفتأ يقف أمامه متألماً متحيراً من استمراره وتكريسه، وأمة العرب غنية، لا ينقصها عدد، ولا يعوزها مال^(١١):

ها نحن في عدد النجوم، فكيف ليس لنا مكان؟
ها نحن نملك ثروة الدنيا ... ويملكنا الهوان
ها نحن تحت الشمس مقبرة وفي الجسد احتقان
كل الشعوب تكلمت والعرب ليس لهم لسان
فكانا مر الزمان بنا وأنكرنا الزمان

ويضع يده على بعض الأوبئة التي فتكت بجسم أمتنا، حتى أردتها في ذلك الواقع المقيت، من جشع وحقد، وغرور وطيش، واستعلاء

وضع شاعرنا يده على بعض الأوبئة التي تفكك جسم أمتنا وكادت ترديها

جَشَعُ قَاتِلٍ، وَحَقْدُ حَقْوَدٍ
ووجوه موبوءة، وصدور
وضحايا وسادة وعبيد
وجبان يشد أزرجبان
وجسوم تضج فوق حرير
وعبي، نقول: ينطق درأ
زمن فيه قد فقدت صوابي
وغرور يطيش فوق غرور
خانقات كحقد المسعور
ولصوص مأجورة لأجير
وصغير يشد أزرجير
وجسوم تضج فوق حصير
وجبان، نقول: أي جسور؟
وعلى صخره هوى تفكري

ويلتفت الشاعر إلى واقع المسلمين بعد أن شَخَّص واقع العرب، فإذا هو لا يقل مرارة وبشاعة وسوءاً من واقع العرب، فيصعد شكواه في قصيدته (شكوى) من أن أمة الإسلام مثخنة بالجراح، تكالب عليها الأعداء في كل مكان، وسددوا إليها طعناتهم من كل مكان (١٣):

يا سيدي أمة الإسلام مُثَخَّنَةٌ
أَنْتِ تَلْفَتُ لَا تَلْقَى سِوَى بِلَدٍ
تَعَاوَزَتْهَا سِهَامُ الْعَدُوِّ وَالنَّكِدِ
يَشْكُو مَرَارَةً أَيْامٌ إِلَى بِلَدٍ
خَنَاجِرُ طَعْنَتِهَا وَهِيَ مُذْبِرَةٌ
وَمِثْلُهَا طَعْنَتْ فِي الصَّدْرِ لَمْ تَجِدِ

ثم يتساءل: أين الفوارس من الفتية الصَّيد، الذين هزوا أركان الأرض بفتوحاتهم الرائعة باسم الله الواحد الأحد؟ إن الخيل وملاعب الخيل لتلقت حيرى متسائلة في شوق ولهفة عن أولئك الكماة البواسل (١٤):

أَيْنَ الْفَوَارِسُ مِمَّنْ كَانَ صَوْتُهُمْ
يُحْمِجُ الْخَيْلَ، تَرْنُو، أَيْنَ فِتْيَتُهَا:
يَزْلُزَلُ الْأَرْضُ بِاسْمِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ؟
إِنَّ الْمَلَاعِبَ مِثْلَ الْخَيْلِ لَمْ تَجِدِ!

ويلجأ إلى المفارقة الهائلة بين ذلك الماضي الأغر لأمة الإسلام، والحاضر القاتم الذي تتخط فيه، إذ كانت بعزتها تعانق الشمس، فأضحت بذلتها في الحضيض، لا تقذف سوى الزبد الفارغ، مع أنها كانت قليلة العدد، وهي اليوم تعد بالملايين (١٥):

قالوا: لقد كان لي يومٌ وقفْتُ به
وكانَ لي رَايَةٌ كَالنَّسْرِ شَاخِجَةٌ
أَعَانَتْ الشَّمْسَ فِي عَزْيٍ وَفِي تَلَدٍ
وَأَمَةٌ، مِثْلُهَا الْأَقْدَارُ لَمْ تَلِدِ
وَالآنَ، مَاذَا أَقُولُ الْآنَ يَا وَطَنِي
هَذِي الْمَلَائِكَةُ وَالْأَحْلَامُ تُرْقِصُهَا
مَا بَالُهَا حِينَ دَوَى الْحَرْبُ وَانْحَسَرَتْ
نَوَاجِدُ الدَّهْرِ لَمْ تَقْذِفْ سِوَى الزَّبَدِ

وفي قصيدته (نحن إسلامنا عظيم عظيم) يصور عظمة المسلمين بإسلامهم تصويراً مجلي المكانة العليا التي رفع بها الإسلام المسلمين، والقيم الكبرى التي عرفتها الدنيا بهم (١٦):

فِي يَدَيْنَا يَضِيءُ هَذَا الزَّمَانُ
إِنْ خَطَرْنَا، فَلِلْمَكَارِمِ نَخْطُو
نَحْنُ مِنْ عَلَمِ السَّحَابِ جُوداً
أَبْجَدِيَّاتُنَا طُمُوحٌ وَعَزْمٌ
نَحْنُ إِسْلَامُنَا عَظِيمٌ عَظِيمٌ
مَا عَرَفْنَا سِوَى الْعَدَالَةِ نَهْجاً
نَحْنُ فِيهِ السُّطُورُ وَالْعُنُوَانُ
أَوْ نَطْقُنَا، فَلِلْخُلُودِ الْبَيَانُ
فَتَهَادَتْ فِي عُرسِهَا الْعُذْرَانُ
وَإِخَاءٌ وَأَلْفَةٌ وَأَمَانُ
لَا تُدَانِي إِسْلَامُنَا الْأَدْيَانُ
وَسِوَانَا دُرُوبُهُمْ طُغْيَانُ

ثم يصور أثر العقيدة في بناء الشعوب المسلمة النظيفة الحرة العزيرة الكريمة المجاهدة (١٧):

عندما تصقل العقيدة شعباً
عَلِمْنَا أَلَّا نَكُونُ عَبِيداً
لَا سُجُونٌ تَبْقَى، وَلَا سَجَانُ
وَعَدُوُّ الْإِسْلَامِ هَذَا الْهَوَانُ
نَحْنُ فِي سَاعَةِ الْمَلِيَّاتِ مَوْجٌ
كَاسِحُ الْمَدِّ، مَا لَهُ شُطَّانُ

كان يحز في نفس الشاعر أن يرى الإسلام وقيمه وأعرافه في غربة، تتجلى أكثر ما تتجلى في تصوّر الأعداء للإسلام وأهله تصوّراً قاصراً كليلاً، يجعلهم يشيدون ببطولات المجاهد المسلم وإقدامه وتضحياته الفذة النادرة، ولكنهم لا يعزونها للإسلام العظيم الذي صنع هذا المجاهد الكميّ البطل، الذي يجب الموت كما يجبون الحياة، وإننا يعزونها إلى الأبطال المادية والأغراض النفعية. ولو أنهم استناروا بنور العقيدة الإسلامية السمحة، لسطعت حقيقتها أمام أعينهم، وعرفوا منهجها الشامل للحياة^(١٨):

هم يمدحونك فارساً مقدماً ومقاتلاً متمرساً وهماً
هم يمدحونك كلّ شيءٍ إنما يتجاهلون بسيفك الإسلاماً
يا ويجهّم، حسبوا العقيدة قصّة إمّا ظفرت بها بلغت مراماً!
لو شغ نور الحق في أحداقهم عرفوا العقيدة منهجاً وحساماً

ويلتفت إلى أخي الإسلام الذي يعاني جهل الأعداء بحقيقة الإسلام، فيواسيه بريق العبارة، مبيناً له أن ذلك مبلغ أعداء الإسلام من العلم^(١٩):

عفواً أخي في الله، تلك حدودهم وأنا أبرئُ نهجك الأشقاما
لم يُذكروا أنّ القضية عندنا دينٌ أغرُّ، يواجه الأضناما
وعقيدة كالطُود تطلُّ خيلها وتُزيح عن درب الحياة ركاماً

٣ - الثقة والاعتزاز بالإسلام :

لقد أحس الشاعر ظمأ شديداً إلى عقيدة تملأ جوانب النفس بالري، ووجد هذا الريّ الشافي في عقيدة الإسلام، فانبهر يشيد بعظمتها وشمولها وقوتها؛ فهي القلعة الحصينة التي يلوذ بها المسلمون اليوم، وهي القلعة المنيعّة التي تدفقت منها خيول اليرموك بالأمس؛ وتألقت سيوف المجاهدين في حطين^(٢٠):

الإسلام العظيم أبعد الشاعر عن غوايات الجاهلية وصخب العقائد الباطلة

عَطَشُ قَاتِلٍ يُعْرِبُ في الجَوْ في غير الإيمان لا يزويني
ألف داء سطا عليّ، ولكن قطرة من دوائه تشفيني
إنه القلعة الحصينة في عصر تحدّث به الغزاة حصوني
فخيول اليرموك منه أطلّت وسيوف الكُماة في حطين

إنها العقيدة التي تطلق من فوق المآذن نداء (الله أكبر)،

فيقع أجمل وقع في الأنفس والأسماع والحياة والأحياء: إنه موجة من نور، دفقة من عبير، سنابل خضر، حلم، رقة عصفور^(٢١):

أطلقها كموجة من نور أطلقها كدفقة من عبير
أطلقها كما السنابل خضراً كحلم، كرقعة العصفور

ويصور الشاعر وقع (الله أكبر) على النفوس كوقع المزن على ذي الغلة الصادي؛ إنها لترطب جفاف الحياة، وتقشع عن الحياة والأحياء الشرور والمفاسد والآثام^(٢٢):

ظمئت أنفُس البرايا وتآقت للنداء الحبيب، للتكبير
لحروف، هي الحياة، ولولا ها لضجّت حياتنا بالشرور
جفت الأرض من رياح الخماسية من وتآقت إلى الثرى الممطر

من هذا الشعور العميق بالانتماء للإسلام كان الشاعر محمود مفلح ينطلق في تشقيق معانيه وتلوين صوره؛ فالإسلام العظيم يجعله في حصانة من غوايات الجاهلية، وصخب العقائد الباطلة. وقد ولد هذا الشعور العميق بالانتماء للإسلام لدى الشاعر اعتزازاً شديداً بإسلامه، تجلّى في جهره به بأعلى صوته، بل إن قلبه لينبض بهذا الاعتزاز، وتفيض نفسه به، فينطلق لسانه مردداً كلمة (مسلم) التي تهتز لسماعها الأرض، وتزهو مرايع الزيتون^(٢٣):

إذا ضجّت العقائد في الأر ض وراحت بسحرها تُغويني
فأنا مسلمٌ، وهذا انتبائي وكما شئت يا حياة فكوني
ملء صوّتي أقولها، ملء نبضي ملء شمس الوجود، ملء يقيني
مسلمٌ مسلمٌ، وتحفّل الأر ض وتزهو مرايع الزيتون

ويتملى الخيال هنا جمال الصورة في جعل مرايع الزيتون تحسّ نسبتها إلى الشجرة المباركة التي مثل القرآن انبعاث نور السماوات والأرض منها، وهي زيتونة لا شرقية ولا غربية، فتزهو مرايع الزيتون لهذه النسبة، وتبته فخراً.

ويلتفت الشاعر إلى المرأة، فيُلقي في سمع الفتاة المسلمة المعتزة بإسلامها، المستمسكة بزيتها الإسلامي المحتشم المتميّز، يلقي نداء الاعتزاز والإكبار والتقدير، مؤكداً لها أن في حجابها العفاف والطهر والصون والحشمة والتقوى والأصالة والمجد والتقوى وثواب الله عز وجل، داعياً إياها ألا تبالي بما ترى من تكشف وتبرج وعري؛ فما هو إلا سراب خلب، ويريق خادع، ومثلها في علياء حشمتها وعفتها وأتوثتها المصونة، كمثل غصن رطيب زكي فوّاح في دوحة الحق، وكنبتة طاهرة في أرض الإسلام، تألقت كالكوكب الملتمع المنير^(٢٤).

أُسْدِي يَا ابْنَةَ الْكَرَامِ الْحِجَابَا	وَأَفْخَرِي فِيهِ مَظْهَرًا وَلُبَابَا
إِنَّ فِيهِ الْعِفَافَ وَالطَّهَرَ وَالْجُشَا	مَّةً وَالْمَجْدَ وَالتَّقَى وَالثَّوَابَا
لَا تُبَالِي بِمَا تَرَيْنَ مِنَ الزَّيْنِ	فِ فُلَيْسَ السَّرَابِ إِلَّا سَرَابَا
أَنْتِ غَصْنٌ فِي دَوْحَةِ الْحَقِّ فَوَا	خُ زَكِي الثَّارِ طَابَتْ وَطَابَا
أَنْتِ نَبْتُ الْإِسْلَامِ فِيهِ تَعْنِي	تِ، وَفِي ظِلِّهِ لَمَعَتْ شَهَابَا

وندع القاريء يقارن بين هذا النداء الذي هتف به شاعر من شعراء الصحوة الإسلامية، ونداء الزهاوي الذي أطلقه منذ عشرات السنين محرضاً المرأة على تمزيق الحجاب:

مُرْقِي يَا ابْنَةَ الْعِرَاقِ الْحِجَابَا وَاسْفِرِي فَالْحَيَاةُ تَبْغِي انْقِلَابَا

ليرى البون الشاسع بين مضمون الأدب الإسلامي، ومضمون الأدب المتفلت من قيم الأمة، البعيد عن شخصيتها الأصيلة، المحرض على التغريب والتقليد والذوبان.

٤ - أخوة الإيمان:

منظر الحجيج المتدفق إلى مكة المكرمة هزّ مشاعر الشاعر لأنه من مظاهر وحدة هذه الأمة

لقد انتشت نفس شاعرنا محمود مفلح بتلك الرابطة المقدسة التي تربط المسلم بأخيه المسلم، وهي رابطة الأخوة في الله، مهما كان لونه وجنسه ولغته؛ ذلك أن أخوة الإيمان أمتن روابط القلوب، وأنظف وشائج النفوس، وأسمى صلات العقول والأرواح. فلا بدع أن تنفعل نفس الشاعر بكل مشهد يجسّد هذه الحقيقة النورانية الخالدة، فتسرب على لسانه شعراً يحكي عظمة عقيدة الإسلام التي وحدت بين المؤمنين من شتى الأجناس والألوان واللغات.

ومن أبرز هذه المشاهد التي هزّت مشاعر شاعرنا منظر الحجيج اللجب، المتدفق إلى مكة المكرمة كالبحر الزاخر، تتابع أمواجه البشرية من كل جنس ولغة ولون ووطن، جمعتهم عقيدة التوحيد، وجعلت أفئدتهم تهوي إلى بيت الله المحرم، فانسابت جموعهم من أقاصي المحيط ومن السند، وقد تجلت في وسط هذه الجموع الهادرة بكلمة التوحيد عظمة العقيدة السمحة التي ألفت بين هذه القلوب^(٢٥):

دَفَقَتْ مَكَّةُ الْعَظِيمَةَ بِالْبَحْ	رٍ، فَمَوْجٌ يَأْوِي وَمَوْجٌ يَبِينُ
وَحَدَّتْهُمْ عَقِيدَةً، أَيْنَ مِنْهَا	لَوْثَةُ الطَّيْنِ وَالْعَمَى وَالْجُنُونُ؟
مِنْ أَقْصَايِ الْمُحِيطِ جَاؤُوا مِنَ السَّنَنِ	دِ وَشَاهَتْ بِحُشْدِهِمْ «بَكِينُ»
أَيْنَ مِنْهَا عَقَائِدُ هَابِطَاتٍ	بَعْضُهَا صَخْرَةٌ وَبَعْضُ عَجِينُ!!
لَيْسَ إِلَّا مَا يُشْبِعُ الْفَرْجَ وَالْبَطْنَ	رَنَ، فَيُثْبِتُ فُرُوجَهُمُ وَالْبَطُونَ

ومن هذا التصور الشامل لأخوة الإيمان ينبجس الشعور العميق في نفس شاعرنا، بما توجهه هذه الأخوة من حقوق، على كل من نطق بالشهادتين في المعمورة، يعبر عنه بهذا الاستفهام المفعم بالاستنكار للمذابح البشعة التي راح ضحيتها ألف من المسلمين البنغاليين في آسام^(٢٦):

لِمَاذَا يُذَبِّحُونَ وَنُسْتَكِينُ	وَلَا أَحَدٌ يَرُدُّ وَلَا يُبِينُ
إِلَى الْإِسْلَامِ نَسَبْتُنَا وَهَذَا	دُمُ الْإِسْلَامِ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ؟!
وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِكُلِّ أَرْضٍ	طَرِيدٌ أَوْ سَجِينٌ أَوْ طَعِينٌ

قصائد الشاعر دعوة إلى النهوض واليقظة والبناء على أساس من الإسلام الحنيف

لم يفتأ الشاعر محمود مفلح يطلق صرخاته لبني قومه، يدعوهم فيها إلى النهوض من وهدة التخلف، والتحرر من ربكة الطغيان وهيمنة الاستعمار، وبناء الحياة الحرة العزيزة الكريمة. وكان يشكو في كثير من الأحيان من بلادة حس قومه؛ إذ لم تؤثر فيهم القوافي المنضدة ولا الخطب المنمقة، كأنها استحالت ألحان البيان البديع نحيباً تنقبض له النفوس، أو نعيقاً تمججه الأسباع (٢٧):

سَمْتُ مِنَ الْكِتَابَةِ يَا صَدِيقِي وَمِنْ نَزَفِ الْجِرَاحِ عَلَى الطَّرِيقِ
وَمِنْ دَفْعِ الشَّرَاحِ بِجَنَافِ لَيْلٍ تَفْجَرُ بِالدَّخَانِ وَبِالْحَرِيقِ
لَقَدْ زَعَمُوا بِأَنَّ الْحَرْفَ بَرَقَ وَأَنَّ الْغَيْثَ خِصَامَةُ الْبُرُوقِ
لِمَاذَا يَكْتُبُ الْكُتَّابُ فِينَا وَهَذَا الْأَفْقُ يَنْزَحِرُ بِالتَّقِيقِ
تُدَاسُ حُرُوفُنَا صَلْفًا وَكِبْرًا وَتُطْرَدُ كَالذَّبَابِ عَنِ الرَّحِيقِ
فَلَا أَحَدٌ يُصِيخُ إِذَا هَتَفْنَا وَلَا أَحَدٌ يَمْسُ يَدَ الْغَرِيقِ

ولكن بلادة الحس هذه لم تفت في عضد الشاعر المؤمن بقضيته، ولم تقعه عن الدعوة والتذكير والتبصير. فها هو ذا في قصيدته (صرخة) يصرخ في قومه بصوت عال أننا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نهضة ولا نجاح لنا ولا نصر إلا به (٢٨):

نَحْنُ قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ سَلَامٌ يَا قَوْمُ، فَانْهَضُوا وَأَفِيقُوا
وَابْعَثُوا النَّارَ فِي رَمَادِ اللَّيَالِي وَأُضِئُوا كَمَا تُضِيءُ الْبُرُوقُ
وَأَرِيقُوا هَذِي الدُّنْيَا مِنَ الرَّجْجِ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ أَرِيقُوا
نَحْنُ لَنْ نَقْهَرَ الْيَهُودَ إِذَا لَمْ يُقْهَرْ الْبَغْيُ عِنْدَنَا وَالْفُسُوقُ

إنها دعوة جاهرة إلى النهوض واليقظة والبناء على أساس من الإسلام الحنيف، وإنه لتأكيد على أن النهضة لا تتحقق لأمة الإسلام إلا إذا تخلص المسلمون من آثار الغزو الفكري الذي زرعه فينا الصليبية واليهودية (٢٩):

كَيْفَ نَسْتَنْبِطُ النَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ وَفِينَا السَّاسَانُ وَالْإِغْرِيقُ؟
كَلِمَا سَرَتْ خُطْوَةٌ لِبِلَادِي صَدَّ حُطُوي الْحَاخَامُ وَالْبَطْرِيقُ

وتتأجج العقيدة في نفس الشاعر، فينسرب الشعر من أعماقه متوهجاً بالثقة المطلقة بأن عقيدة الإسلام وحدها هي التي تقودنا إلى المجد والسودد (٣٠):

أَمْتِي أَمَّةُ الْعَقِيدَةِ يَا قَوْمُ وَمُ هَذَا سَلَاخُهَا الْمَوْثُوقُ
حَسْبُهَا أَنَّهُ اسْتَطَالَتْ عَلَى الشَّمْسِ وَمِنْهَا الْفَارُوقُ وَالصَّدِّيقُ

وهكذا تتوالى صرخات الشاعر في قصائده الساخنة الداعية إلى النهوض والتحرر، فتأتي مدوية جاهرة مججلة، تحمل وهج انفعاله وصدق معاناته. ولا يثنيه عن إطلاقها علمه أحياناً أن لا من سميع ولا من مجيب، فحسبه أنه كان يطلقها معبراً عما يعتلج في نفسه من بواعث الألم والحرقه على قومه الغافين السادرين في غفلتهم، أملاً أن تثمر إحدى صرخاته في انبلاج فجر الحرية والخلاص (٣١):

أَنَا أَدْرِي بِأَنَّ شِعْرِي لَغَوُ وَبِهِ هَذِهِ الصُّدُورُ تَضِيقُ
أَنَا أَدْرِي بِأَنَّهُ غَيْرُ مُجِدٍّ بِقَوَائِفه لَا تُشَقُّ طَرِيقُ
غَيْرَ أَنِّي صَرَخْتُ دُونَ وَعْيٍ مَثَلًا يَطْلُقُ الصَّرَاحُ الْغَرِيقُ
فَعَسَى أَنْ تَكُونَ صَرْخَةٌ فَجَرٍ يَقْصِفُ الرَّعْدُ بَعْدَهَا وَالْبُرُوقُ

٦ - الشعارات الزائفة والكبت والتنكيل:

ويقف شاعرنا عند الشعارات الزائفة التي أعشت الأبصار، وملأت الأسباع ضجيجاً فارغاً، يرفعها الطغاة المستلطفون، مثنين الشعوب

المسحوق بالريغيف، وبالنصر والأجداد، حتى إذا ما جدَّ الجدُّ انكشف الزيف، وكانت الهزائم المخجلة القاتلة^(٣٢):

فلسطين الوطن الأم للشاعر لها

مكانها الخاص في أعماله التي

تدور حول إحقاق الحق

عُمُرُ مَرٍّ وَالشَّعَارَاتُ تُثَلِّ
كَمْ شَقِينَا بِهَا يَمِيناً يَسَاراً
كَانَ فِيهَا الرِّغِيفُ أَقْدَسُ حُلْمٍ
كَانَ فِيهَا الزَّعِيمُ أَوْحَدُ قَدْأ
وَعَدُوِّي بِنَارِهَا يَكْوِينِي
وَتَعِينُنَا مِنْ خَبْطِهَا الْمَجْنُونِ
يَتَجَلَّى لِشَعْبِنَا الْمَطْحُونِ
فَإِذَا قَالَ، فَالْمَقُولَةُ دِينِي!

ويضيق ذرعاً بالكبت والتزييف والاستبداد والتثكيل^(٣٣):

عُمُرُ وَالْعُيُونُ تُغْصَبُ حَتَّى
ضِقْتُ بِالْثَّرَاهَاتِ تَرْجُمُ عَقْلِي
ضِقْتُ بِالمَوْتِ فِي الْحَيَاةِ، فَهَذَا
ضِقْتُ بِالنَّهْرِ آسِناً وَيَقُولُو
وَأَخيراً أَفْقَتْ وَالْكَأْسُ سُومٌ
وَقِيْـــــوْدٌ تُقْلُ رَجُلِي وَكَفَى
نَسِيتُ ضَوْءَهَا الْحَبِيبَ غُيُوبِي
وَالنَّفَايَاتِ فِي الدُّجَى تَغْزُونِي
كُلُّ شَيْءٍ فِي رَحْلَتِي يَـــــرْثِينِي
نَ: فُرَاتٌ عَنْ مَائِهِ الْمُسْنُونِ!
وَالشَّيَاطِينُ فِيهِ تَسْتَهْوِينِي
وَسَيَاطُ لَثِيمَةٍ تُشْوِينِي

٧ - قضية فلسطين:

كان لفلسطين وطن الشاعر الأم النصيب الأوفى من شعره، ومن ثمَّ كان كثير من شعره يدور حول مأساة العرب والمسلمين في فلسطين. ومن روائع قصائده فيها: (وفلسطين زعتر ورصاص). فقد شَخَّصَ فيها مأساة الشعب الفلسطيني الظامى إلى العودة والتحرير، بعد أن قضى جيل النكبة عمره في كفاح مرير، وظمأ شديد، وتطلَّع واصب ليوم النصر^(٣٤):

تَبَيَّنِي مَــــاذَا جَـــــرَى أَسْمَاءُ
نَحْنُ مِنْ غَصٍّ بِالسَّوَالِ وَشَاخَتْ
نَحْنُ مَنْ أَدْرَكَ الزَّمَانَ نَدِيّاً
عُمُرُنَا عُمُرُ نَكْبَةٍ دَهْمَتْنَا
عَطَشٌ قَاتِلٌ، وَصَبْرٌ عَنِيدٌ
وَوَقُوفٌ عَلَى الضُّفَافِ وَعَيْنُ
نَحْنُ فِي لَفْحَةِ الْمَجْبَرِ ظِمَاءُ
فِي مَآقِبِهِ دَمْعَةٌ خَرَسَاءُ
ثُمَّ جَفَّتْ أَوْرَاقُنَا الْخَضْرَاءُ
أَيْنَ مِنْهَا، وَالْوُعْتِي، كَرْبَلَاءُ
وَطَمْوُوحٌ، وَعَثْرَةٌ، وَابْتِدَاءُ
تَرْمُقُ الْأَفْقَ لَوُورَتْ عَكَاءُ

وقد نظم قصيدته هذه قبل قيام الانتفاضة المباركة بأكثر من سنتين، وتحدَّثَ فيها عن جهاد الشعب الفلسطيني لتحرير أرضه، وكأنه ينظر إلى الانتفاضة التي فجرها الكماة الصَّيد الأبناء من أبناء الإسلام في أرض الإسراء والمعراج، حتى إنه ليتحدث عن سلاح الحجارة إن فات المجاهدين الرصاص. إنها الرؤية الإسلامية الصحيحة لحقيقة الجهاد الصادق المحرَّر^(٣٥):

إِنَّمَا غَضَبُهُ الشَّعُوبُ فِي الْأُزْ
إِيَّاهُ شَعْبِي، وَأَنْتَ أَصْلَبُ شَعْبٍ
شَقَّ دَرْبَ الْكِفَاحِ بِالْجَسَدِ الْعَا
إِنْ عَدِمْنَا الرِّصَاصَ فَالْحِجْرُ الْغَا
لَمْ يَمِتْ شَعْبُنَا الْعَظِيمُ وَلَا جَفَّ
نَحْنُ مِنْ أَتَقَنَّ الشَّهَادَةِ حَتَّى
نَحْنُ مَنْ أَكْسَبَ الْحِجَارَةَ تَبَضًّا
ضِ هَدِيرٌ، وَفِي السَّأِ أَصْدَاءُ
وَلَدَى السَّبَقِ تُعْرِفُ النَّجْبَاءُ
رِي، وَزَحَتْ أَحْجَارُهُ الصَّاءُ
ضَبُّ مَنْ رَصَاصَةٌ وَقَضَاءُ
بَتْ عَلَى الدَّهْرِ تُرْبَتِي السَّمَرَاءُ
ظَنَّ أَنَا مِنْ دُونِنَا الشَّهَادَةُ
فَإِذَا الْأَفْقُ بَرَفُهَا وَالشِّتَاءُ

ويشبه تعلق المسلمين بأرض الإسراء والمعراج بالعشق، يكون بين العشاق المتيمين، لا فكاك منه ولا انعتاق، ويصور معارك الأبطال على ثرى فلسطين عرساً ترقص له الروابي والبطاح، وصلاح الدين يزجي كتاب الفاتحين المجاهدين، وييده اللواء المرفوع، وهتاف التوحيد يعلو ويعلو، حتى يبلغ الجوزاء^(٣٦):

إِنَّ أَرْضَ الْإِسْرَاءِ تَنْبُضُ بِالْعِشْقِ وَإِنَّا عَشَّاقُهَا الْقُدَمَا
عُرْسُنَا الْيَوْمَ، فَالزَّغَارِيدُ مَوْجُجٌ وَالْمِيَادِينُ كُلُّهَا حِنَاءُ
عُرْسُنَا الْيَوْمَ، فَارْقُصِي يَا رَوَابِي وَأَطْلِي بِالنَّدَى عَفْرَاءُ
لَمْ يَزَلْ يَتَخَذَى الْجَمُوعُ صَلاَحَ الدِّينِ يَزْهَوُ، فِي قَبْضَتِيهِ اللَّوَاءُ
وَهَتَافُ التَّوْحِيدِ يُطْلِقُهُ الشَّعْرُ وَتَهَقُّو لِسَحَرِهِ الْجُوزَاءُ

وفي قصيدته (شكوى) بيت القدس الجريح آلامه المبرحة، ويشكو من الجراح النازفة، متسائلاً عن من يضمّد تلك الجراح، فلا يرى أمامه إلا جيوش القوّالين، تضجّ بهم المنابر والمؤتمرات كل عام دوننا جدوى، والعدوّ المغتصب ينهش في جسم الأمة الجريح النازف مبتهجاً طرباً^(٣٧):

يَا قَدْسُ، إِنَّ جِرَاحِي كُلُّهَا نَزَفَتْ فَمَنْ يُضَمِّدُ جِرَاحَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ
يُقَاتِلُونَ بِالْفَاطِظِ مُنَمَّقَةٍ وَيَمْتَطُّونَ خِيُولَ الشَّعْرِ كَالْمُرْدِ
وَكُلُّهُمْ فِي لَهِيْبِ الْقَوْلِ عَنَتَةٌ وَكُلُّهُمْ فِي لَهِيْبِ الْفَعْلِ كَالْوَتِدِ
فِي كُلِّ عَامٍ لَنَا حَشْدٌ وَمَوْثَرٌ وَكُلُّ عَامٍ تَرَى أَنْكِي مِنَ التَّكْدِ
وَالذُّبُّ يَنْهَشُ فِي أَشْلَانِنَا طَرِباً وَالْبُومُ أَصْبَحَ صِنْوَ الْبَلْبَلِ الْغَرْدِ

وتُحييه القدس في ولّه وحيرة سائلة: أين المنقذون من الأحرار الأباة، رهبان الليل وفرسان النهار من المؤمنين، الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يَمْضُونَ لَيْلَهُمْ فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، لَا فِي الْحَانَاتِ وَالْمِرَاقِصِ وَدُورِ اللّهُوِ وَالْمَجُونِ^(٣٨):

وَالْقَدْسُ تَنْظُرُ وَلَهُيْ أَيْنَ مَنْقَذُهَا وَأَيْنَ مَنْ رَكَّزُوا الرِّيَاطَ فِي صَفَدٍ؟
وَأَيْنَ مَنْ هَجَرَتْ أَجْسَادُهُمْ فُرُشاً إِلَّا الْأَسْنَةَ فِي شَوْقٍ لِيَوْمٍ غَدٍ
يَقْطَعُونَ بِأَيِّ اللَّهِ لَيْلَتَهُمْ لَا فِي الْمِرَاقِصِ بَيْنَ الْخُمَرِ وَالْخُرْدِ

٩ - جيل الصحوة الإسلامية المنقذ:

للشاعر وقفات كثيرة آلهة في جيل الصحوة

للشاعر محمود مفلح وقفات كثيرة عند جيل الصحوة الإسلامية المنقذ؛ إذ قلما تخلو قصيدة من قصائده التي عالج فيها أوضاع الشعوب المسلمة، من ذكر جيل الصحوة الذي تعقد عليه الآمال. وله قصيدة بعنوان (جيل الصحوة)، ركب فيها متن شعر التفعيلة الحرّ، ووجه نداءه لجيل الصحوة الإسلامية المحصّن بالعقيدة، السائر في مواكب النور. فهو يناديه بجيل المصاحف تارة، وبخيمير الأرض تارة أخرى، وبطلق الولادة تارة ثالثة، ويرى فيه النبع الثرّ المتدفق في صحراء الأمة الظمأى، والجيل الجادّ الذي كان برهاناً ساطعاً على إعادة الثقة بأمة الإسلام، وشهادة ناطقة بجدارتها في الحياة^(٣٩):

وَأَقُولُ لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ
وَأَقُولُ لِلْجِيلِ الْمُحَصَّنِ بِالْعَقِيدَةِ وَالْمَتَوَجِّجِ بِالصَّبَاحِ
وَأَقُولُ يَا جَيْلَ الْكَفَاحِ
أَنَا بَلَوْنَا اللَّيْلَ وَالْأَشْيَاءَ وَالْمَوْتَ الْمُؤَجَّلَ وَالْجِرَاحَ
وَأَقُولُ يَا جَيْلَ الْمَصَاحِفِ
يَا خَيْرَ الْأَرْضِ .. يَا طَلَقَ الْوِلَادَةِ
هَآ أَنْتَ كَالنَّبُوعِ تَذْفُقُ فِي صَحَارِنَا
وَتَمْنَحُنَا الْوَثِيقَةَ وَالشَّهَادَةَ

وينظر إلى مدّ الصحوة الإسلامية الكاسح، يقوده المؤمنون الأشاوس، وقد تسلّحوا بسلاح العقيدة والإيمان وحب الشهادة، فيرى فيهم الأباة الكماة المحرّرين الذين أنبتهم الجرح القديم، فجاءوا ليجلوا من عالمنا دياجير الظلام، وليثبتوا للدنيا قاطبة أن المسلم لا يقيم على ضيم، ولا يركع إلا لله^(٤٠):

وَلَكُمْ تَهْرُؤُ الْمُؤْمِنِينَ عِصْيَا وَأَسْفَا
جَاؤُوا مِنَ الْجَرْحِ الْقَدِيمِ وَطَبْعُهُمْ
إِنِّي لَأَلْمَحُهُمْ عَلَى صَهْوَاتِهِمْ
جِيلٌ تَحَرَكَهُ الْعَقِيدَةُ مُتَرَعِّجٌ
ضُمُرَتْ مِنَ الْهَمِّ الْعَظِيمِ جَسُومُهُمْ
يَمْضِي عَلَى دَرْبِ الشَّهَادَةِ مُؤْمِنًا
قُلْ لِي بِرَبِّكَ كَيْفَ يَرْكَعُ مُسْلِمٌ

وَالْمُؤْمِنُونَ إِزَاءَهَا أَطْوَادُ
طَبَعُ الرِّيحِ تَرْفُقُ وَعِنَادُ
كَالْمَوْجِ لَيْسَ لِمَدَّةِ أَبْعَادُ
بِالْكِبَرِيَاءِ وَسَيْفُهُ اسْتَشْهَادُ
وَلَقَدْ تَنَوَّعَتْ بَعِيْثُهَا الْأَجْسَادُ
أَنَّ الْحَيَاةَ عَقِيدَةٌ وَجْهَادُ
وَلَهُ الْإِبَاءُ عِمَامَةٌ وَنَجَادُ

وفي قصيدته (نحن إسلامنا عظيم عظيم) يصور عظمة المسلمين بإسلامهم، ويحلي أثر العقيدة في بناء الشعوب المسلمة العزيزة القوية. ولئن أحنى الدهر على تلك الشعوب، وتاهت مراكبها، لقد قيض الله لها اليوم من أبناء الصحوة الإسلامية الفتى الربان الماهر التقى الأمين^(٤١):

إِنْ تَكُنْ تَاهَتْ السَّفِينَةُ يَوْمًا
مُسْلِمٌ صَاغَهُ الْوُجُودُ وَجُودًا
صَقَلَتْهُ الْآيَاتُ حَتَّى تَرَأَى

فَلَقَدْ جَاءَهَا الْفَتَى الرَّبَّانُ
وَبَعِينِيهِ تُشْرِقُ الْأَوْطَانُ
مِثْلَ سَيْفٍ يَزِينُهُ اللَّمْعَانُ

إنه نموذج المسلم الواعي المنادي بدعوة القرآن التي بها تنقش سدفه الليل، وتبدد ظلمته التي طالت على أمتنا، وفي دعوة القرآن سر قوتنا ونهضتنا وتحررنا وعزنا^(٤٢):

ظَلَمَةُ اللَّيْلِ لَنْ تَطْوِيَ عَلَيْنَا
فِيهِ نَبْضُ الْحَيَاةِ، فِيهِ الْأَمَانِي
فِيهِ عِزٌّ، وَفِيهِ هَدْيٌ وَنَصْرٌ

وَلَدَيْنَا نَبْرَاسُنَا الْقُرْآنُ
فِيهِ أَيْمَانُ الْوُضَاءِ الْحَسَانُ
وَسِوَاهُ الضَّلَالُ وَالْخُسْرَانُ

ومن هنا تكالبت قوى الكفر على إبعادنا عنه، وحجبنا عنه، وحجبنا عنه^(٤٣):

هَذِهِ الْقَصَائِدُ عَرَفَ عَلَى
أَوْتَارِ الْعِزَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

كَمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَظْلَ مَهِيضًا
كَمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَقُولَ سِوَاهُ
حَاوَلُوا حَاوَلُوا اغْتِيَالُ الْمَثَانِي

لَا جَنَاحَ يَقْوَى وَلَا طَيْرَانُ
وَهُوَ لَا مَنْطِقَ لَهُ .. لَا لِسَانُ
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُطْفَأُ الْإِيْمَانُ!؟

ويعود فيصور شقوتنا وتعاستنا بغياب القرآن عن مسرح حياتنا، إذ

سيطر الجبان، وفشا القتل والشقوة والفساد^(٤٤):

غَابَ عَنْ مَسْرَحِ الْحَيَاةِ زَمَانًا
فَإِذَا النَّاسُ قَاتِلٌ وَقَتِيلٌ

وَعَلَا الْمَسْرَحَ الْجَبَانَ الْجَبَانُ
وَإِذَا الْكُونُ شِقْوَةٌ وَدُخَانُ

ثم هلت البشرية بقدوم كتائب الإيوان ترى كالمزن الهتون، يحجي موات الأرض، وكالنور الكاشف يطرد الزيف، ويعري الوثنية والطغيان^(٤٥):

ثُمَّ جَاءَتْ بِشَائِرُ اللَّهِ تَتَرَى
فِي يَدَيْنَا رِسَالَةَ اللَّهِ لِلنَّاسِ
قَدْ رَحَلْنَا مِنَ الْجَفَافِ وَجُنْنَا
وَتَلَاشَتْ عَلَى الطَّرِيقِ زَيْفُ

وَأَطَلَتْ بِخَيْلِهَا الْفُرسَانُ
سِ، وَفِينَا الْإِيْمَانُ وَالْإِحْسَانُ
مَطْرَرًا، إِنَّ رَمَلْنَا ظِلْمَانُ
وَتَدَاعَتْ يَكْبَرُهَا الْأَوْثَانُ

ويعري بعد ذلك تبعية بعض بني جلدتنا وعبوديتهم أمام حضارة الغرب المادية الزائفة الغارقة في جحيم الجريمة والحيرة والضيق والفساد، ويعجب من عبودية بعض الأقزام من أبناء قومنا للغرب، وتبعيتهم له، وتقليدهم إياه^(٤٦):

ثم يصور المدى البعيد الشاسع بين جيل القرآن وجيل الشيطان في صيغة سؤال^(٤٧):

سَقَطَ الْغُرْبُ فِي الْجَرِيْمَةِ حَتَّى
فَالظَّلَامُ الْكَثِيفُ جَنْسٌ وَخَرُّ
صَوْرٌ تَبَعْتُ الْغَثَائَةَ فِي النَّفْ
فَسَدَتْ فِيهِمُ الطَّبَاعُ فَهَذَا
وَالْغَرِيبُ الْعَجِيبُ أَنَّ شَبَاباً
تَبِعُوا وَهُمْ شَبَرًا بِشِيرٍ وَلَمَّا
رَسَفَتْ فِي جَحِيمِهَا الْأَبْدَانُ
وَالنَّهَارَاتُ كُلُّهَا غَثِيَانُ
سِ وَتَبَيَّنَ عَنْ مِثْلِهَا الْإِنْسَانُ
تَغْلِبَانُ، وَهَذِهِ تُعْبَانُ
مَنْ بَنَى أَمَّتِي لَهُمْ عُجْبَانُ
دَخَلُوا الْجَحْرَ أَسْرَعَ الْأَعْوَانُ

أَيْنَ جِيلٌ شِعَارُهُ اللَّهُ يَا قَوْمُ وَجِيلٌ شِعَارُهُ الشَّيْطَانُ؟

هذا هو شأن جيل التغريب والتبعية والذلّ، وهو الجيل الذي شعاره الشيطان، أما الجيل الذي شعاره الله فهم أولئك الثائرون على أوضاع المسلمين المتردية، هم جيل الصحوة من أبناء الأمة المسلمة الأبرار، ورواد المنهج المحمدي الأغر، لا ييغون به بديلاً. ولقد دوى صوتهم في الآفاق كالرعد، معبراً عن غضبهم لدينهم وعقيدتهم، وأذاقوا أعداءهم فتكات عزة الإيوان (٤٨):

هِيَ أُمَّةٌ، وَالنَّهْجُ نَهْجٌ مُحَمَّدٍ
مُسَّتْ عَقِيدَتُهُمْ فَكَانَ دَوِيُّهُمْ
هِيَ عِزَّةُ الْإِيمَانِ فِي فَتَكَاتِهِمْ
هِيَهَاتَ أَنْ يَرْضَوْا سِوَاهُ إِمَامَا
كَالرَّعْدِ يَقْذِفُ عِزَّةً وَضَرَامَا
هَلَّا عَرَفْتَ الْمُسْلِمَ الْمُقْدَامَا

وبعد، لقد عزف الشاعر محمود مفلح على قيثارة شعره ألحان العزة الإسلامية، وصوّر ماضي المسلمين المشرق وحاضرهم المظلم، ورسم سبيل نهوضهم وتحررهم، وأزرى بتبعية الأذنان والعبيد، وأشاد بأخوة الإيوان وجيل الصحوة الإسلامية المنقذ، وحيّا جهاد المجاهدين في فلسطين وأفغانستان.

وكان يصدر في هذا كله عن عقيدة راسخة بأن لا خلاص للمسلمين من تخلفهم وتبعيتهم وذلهم واستكانتهم إلا بعودة صحيحة إلى الإسلام. وقد أترع إيمانه بأفكاره نفسه بالمشاعر الملتبئة، وأكسبها حرارة المعاناة، فجاء شعره نابضاً بالعاطفة المتأججة الرّيا، مؤاراً باللفظ الكريم الجزل، مزداناً بالتعبير الناصع الجميل، والصورة المجنحة الشاخصة، والقافية المتينة العذبة، والإيقاع المطرب الأخاذ، اسمعه يقول (٤٩):

أَنَا مَا سَجَدْتُ وَلَا انْحَنَيْتُ بِقَامَتِي
أَنَا مُسْلِمٌ، وَأَقُولُهَا مَلَاءَ الْهَوَى
أَنَا مُسْلِمٌ، وَالنُّورُ يَنْبِضُ فِي دَمِي
أَنَا مُسْلِمٌ، وَالشَّمْسُ تَأْلَفُ هَامَتِي
مَا فَلَ سَيْفُ الْعَادِيَاتِ عَزِيمَتِي
أَنَا كُلَّمَا سَقَطْتُ عَلَى قَذِيفَةٍ
أَنَا كُلَّمَا قَطَعُوا بَنَانًا مِنْ يَدِي
إِلَّا لِرَبِّي الْوَاحِدِ الدَّيَّانِ
رَغْمَ الدَّجَى وَالسُّوْطِ وَالْقَضْبَانِ
وَلِسَانُ كُلِّ الْمَكْرَمَاتِ لِسَانِي
وَالسَّائِرُونَ بِدَرْبِهَا إِخْوَانِي
كَلَا، وَلَا هَزَّ الْأَذَى إِيْمَانِي
هَطَلْتُ عَلَى سَحَابِ الْفَرْحَنِ
نَبَتْ عَلَى كَفِّي أَلْفُ بَنَانِ

بهذا المضمون العالي، وبهذا الأسلوب الحي المتدفق الجميل، كان شعر محمود مفلح من عيون الأدب الإسلامي المعاصر، وكان صاحبه من النجوم المتألقة في سماءه.

الهوامش

- | | | | |
|------------------------------|---------------------------------|-------------------------|---------------------------|
| (٩) إنها الصحوة: ٣٠. | (٢٠) سموخاً أيها المآذن: ٢٢. | (٣١) المصدر السابق: ٤١. | (٤٢) إنها الصحوة: ٣٤. |
| (١٠) إنها الصحوة: ٣٠. | (٢١) سموخاً أيها المآذن: ٤٨. | (٣٢) المصدر السابق: ٢٣. | (٤٣) المصدر نفسه: ٣٤. |
| (١١) الرأية: ٧. | (٢٢) سموخاً أيها المآذن: ٤٨. | (٣٣) المصدر السابق: ٢٤. | (٤٤) المصدر نفسه: ٣٤. |
| (١٢) سموخاً أيها المآذن: ٤٩. | (٢٣) سموخاً أيها المآذن: ٢٥. | (٣٤) الرأية: ٩. | (٤٥) المصدر نفسه: ٣٥، ٣٤. |
| (١٣) الرأية: ٣٨. | (٢٤) سموخاً أيها المآذن: ٢٦. | (٣٥) الرأية: ١١. | (٤٦) المصدر نفسه: ٣٦، ٣٥. |
| (١٤) الرأية: ٣٩. | (٢٥) الرأية: ٦٣. | (٣٦) الرأية: ١١. | (٤٧) إنها الصحوة: ٣٦. |
| (١٥) الرأية: ٣٩. | (٢٦) سموخاً أيها المآذن: ١١. | (٣٧) الرأية: ٤٠. | (٤٨) الرأية: ٣٤. |
| (١٦) إنها الصحوة: ٣٢. | (٢٧) سموخاً أيها المآذن: ١٦-١٨. | (٣٨) الرأية: ٤٠. | (٤٩) إنها الصحوة: ٥٤-٥٦. |
| (١٧) إنها الصحوة: ٣٣. | (٢٨) المصدر السابق: ٤٠. | (٣٩) إنها الصحوة: ٣٧. | |
| (١٨) الرأية: ٣٣. | (٢٩) المصدر السابق: ٤٠. | (٤٠) إنها الصحوة: ١١٢. | |
| (١٩) الرأية: ٣٤. | (٣٠) سموخاً أيها المآذن: ٤٠. | (٤١) المصدر نفسه: ٣٣. | |